الباب الثالث والعشرون

سياسة الباشا محمود فى تمبكت

ولنرجع إلى ذكر رجوع الباشا محمود إلى تنبكت ، وقد تقدم أنه استأخر فى أرض دند عامين فى المحاربة مع إسكيا نوح [١] ، فرجع ولم يظفر بمراده فيه فكتب للقائد المصطفى قبل مجيئه أنْ يقبض القاضى عمر وإخوته حتى يجيء ، فكتب له أنْ لا يقدر على ذلك ، امهل حتى تقدم أنت بنفسك ، فلما قدم رام ذلك [٢] قال له أصحاب الرأى : امسك عنها حتى تنتقم من أبى بكر ولد الغنداس وأعوانه الذين قتلوا ابن داود وأصحابه .

فعزم إليهم وهرب أبو بكر ، وباعد منه فجعل فتكًا عظيماً فى الصنهاجيين وقتلهم قتلاً شديدًا ، حتى ظنَّ الناسُ أنه لم يبقَ منهم باقية ، وغنم من تلك الناحية مالاً كثيرًا فرجع لتنبكت .

(محنة العلماء الثانية فى تمبكت)

وقد تخلف الباشا جودار وراءه فى مدينة كاغ حين رجع من دند ، واستأخر هو فى الطريق حتى بنى قصبة بنب ، وأسكن فيها الرماة ، وجعل عليهم القائد المصطفى بن عسكر ، فلما وصل تنبكت فى قفوله من راس الماء [٣] فى قتال الصنهاجيين شرع فى تدبير قبض الفقهاء أولاد سيد محمود رحمه الله ونفعنا به فكان حبيب ولد محمود أنباب من أكبر أعوانه وأهل رأيه حينئذ .

فأول ما بدأوا به من رأيهم أنهم برحوا فى البلد أن الباشا يدخل فى ديار الناس غدًا ، فأىّ دار وجد فيها السلاح ، فلا يلوم بها إلا نفسه إلا ديار الفقهاء أولاد سيد محمود فقط، فهرب الناسُ بأموالهم إلى عندهم فى ديارهم على وجه الوديعة ، ظنًا منهم متى رأى المال فى أىّ دار ساعة التفتيش يأكلها ظلماً وعدواناً .

فهذا عين المراد فى رأيهم ذلك ، فدخل ديار البلد غدًا وفتشوها جميعًا ، ثم برح [٤] بأنْ يجتمع الناسُ كلهم غدًا فى جامع سنكرى للحلوف [٥] على بيعة السلطان مولاى أحمد .

---

(١) الإسكيا نوح : تولى الحكم فى عام ١٠١٨ هـ / ١٦٠٨ م . وقد استطاع مقاومة المراكشيين .

(٢) رام ذلك : أى طلبه ورغبه .

(٣) راس الماء : منبع النهر .

(٤) ثم برح : قرر .

(٥) الحلوف : أى القسم أو اليمين.

فاجتمع جميع الناس فحلف التواتيون والفزانيون والوجليون ومنْ حاسنهم فى اليوم الأول ، وهو يوم الاثنين الثانى والعشرون يوماً من المُحرم الحرام ، فاتح العام الثانى بعد الألف ، ثم حلف الولاتيون والودانيون ومنْ حاسنهم فى يوم الثلاثاء الثالث والعشرين منه . فقال : لم يبقَ إلا الفقهاء يحضر الناس لهم غدًا حتى يحلفوا .

فلما اجتمع الناسُ فى الجامع غدًا غُلقتْ الأبواب ، وأُخرجَ الناس إلا الفقهاء وأصحابهم وأتباعهم . قبضهم جميعاً الباشا محمود بن زرقون يومئذ وهو يوم الأربعاء الرابع والعشرون من محرم فاتح عام الثانى بعد الألف وأسرهم وأمر بهم إلى القصبة فريقين : فريق ذهب بهم فى وسط البلد ، وفريق ذهب بهم خارج البلدة من جهة القبلة ، وفيهم الشهداء الذين قتلهم يومئذ وهم سائرون حتى وصلوا حومة [1] زم كند .

فاستهلّ واحد من الأسارى وهو ونكرى يُقال له أندف سيف واحد من الرماة فضربه به فقتلوا ساعتئذ أربعة عشر رجلاً من الأسارى تسعاً من أهل سنكرى العلامة الفقيه أحمد معيا ، والفقيه الزاهد محمد الأمين بن القاضى محمد بن سيدى محمود . والفقيه المصطفى ابن الفقيه مسر اند عمر ، ومحمد بن أحمد بير بن الفقيه سيد محمود وبوز بن أحمد أوعثمان ومحمد المختار بن معيا أشار وأحمد بير بن محمد المختار بن أحمد أخ الفع صلح تكن ، وهو ابن أخ مسر اند عمر ، ومحمد سر بن الأمين والد سن ، ومحمود كروكر من أهل حومة كاسير ، وبرهم ميدل التواتى الخراز ، وهو من أهل كيركن ، واثنان ونكريان أندف الذى تسبب فى هذه المصيبة وأخوه ، وحرطانيان لأولاد سيد محمود فضل ، وشينون الخياطان . فانتهى القتل إلى محمد بن الأمين فكانوا وهو فى ذلك المسير ، فقطعه أخو القائد أحمد بن الحداد فحمله على فرسه وهرب إلى داره فسلم .

بلغ الخبر الباشا محمود وهو ما زال فى المسجد فقال ما أمر به ، وبعث لهم النهى عن العودة إلى مثله ، أما القاضى عمر فهو شيخ كبير يومئذ وبه وجعُ الظَّهْر ولا يقدر على المشى فركبوه فنيشا ، هو والزاهد سيدى عبد الرحمن أخوه فى الفريق الذى مضوا فى وسط البلد ، وجميع منْ قبضهم الباشا محمود ربطوا فى السير إلا إياهما ، وهذا القتل كان بقرب دار أمر ادش وهو حرطان من حراطين البلد ، فأمر بدفن هؤلاء الموتى فى داره .

---

(١) حومة : حى أو منطقة سكنية .

وجمع الفقيه أحمد معيا ، والفقيه محمد الأمين ، والفقيه المصطفى فى قبر واحد ، والعلامة الفقيه محمد بغيغ هو الذى قام بتجهيزهم ، فخرج أمراداش المذكور من تنبكت راحلاً ، فسكن فى بلد شيب إلى أن توفى .

فلما سمع الزاهد السيد عبد الرحمن فقال من أهل بيتهم ، من يصيب هذا السوق اليوم إلا محمد الأمين ، ولما سمع بموت فضل فيهم فقال فضل صاب هذا السوق قد فاز .

ثم دخل الباشا محمود فى دياره ، فرفع جميع ما فيهن من الأموال ، والمتاع ، والأثاث التى لا يُحصيها إلا الله تعالى بين أملاكهم ، وأملاك سائر الناس من الودائع ونهب أتباعه ما اتصلوا وكشفوا عوراتهم ، وجرَّدوا حرائرهم ، وفعلوا بهنَّ الفواحش ، وذهبوا بهنَّ إلى القصبة مع الرجال وسُجنوا فيها ستة أشهر .

وأفسد الباشا جميع المال وشتتها شذر مذر وتكرم بها للرماة ، ولم يبعث للسلطان مولاى أحمد إلا مائة ألف ذهباً ، ثم سمع الباشا محمود وهو تنبكت أن الفتى القائد عمار وأصحابه الذين تركهم فى القصبة كلهم قد نالهم ضررٌ عظيمٌ من إسكيا نوح ، فبعث لهم القائد مامى بن برون فى القوارب ليُرحلهم إلى تنبكت . فلما وصلهم ما وجد كيف [1] يدخل عليهم من باب القصبة لأجل مضايقة أصحاب إسكيا نوح عليهم ، فأتاهم القوارب فى البحر من وراء القصبة ، وكسروا القصبة من تلك الجهة، فدخل القارب منها .

ودخل القائد عمار فى قارب فنف سعيد فوصلوا تنبكت قال فنف المذكور : لما طرد أهل جنى سلطان ملى بعد رجوع الباشا جودار إلى مراكش والقائد عمار المذكور هو باشا يومئذ ، بعثوا البشارة له صحبة شاوش مسعود اللبان فى قاربه . قال : لما وقفنا بين يديه قال : ألستَ الذى حملتنى فى قاربك حين ارتحلنا من قصبة كلن ، قال: نعم أنا هو . عرفتُ حينئذ أنه ثابت الذهن حديد العين [2] .

وفى القابل من مشى مراسيل القاضى عمر إلى مراكب ، بعث الأمير السلطان مولاى

---

(١) ما وجد كيف : لم يستطع معرفة .

(٢) حديد العين : حاد البصر .

أحمد القائد بو اختيار إلى تنبكت فى شهر الصفر والله أعلم فى العام الثانى بعد الألف بعد قبض الفقهاء بقليل ، وهو علج [١] نصرانى ، أسمر اللون ، جميل الخلقة ، ولد سلطانهم أمة جارية يُعيِّره إخوانه بأمه .

فلما تكرر ذلك هرب إلى المسلمين فى مراكش عند مولاى أحمد بعث أبوه فى شرائه مالاً كثيرًا ، فلما حصل المال عند مولاى أحمد وأسلم ، فقال السلطان : هذا رزقك كله حلالاً طيبًا ، وعادتهم فى مثل هذا أن المال لا يرجعون إليه .

الحاصل كتب كتاب أمان للقاضى عمر ، وجعل المراسيل صحبة القائد بواختيار، وأمره أنْ يكلم الباشا محمود أنْ لا يتعرض لهم بسوء ، وهو قد كتب قبل له أن يقبضهم ويصرفهم إليه فى القيود ، ولا علم عند أحد بذلك من خدامه ، فلما وصلوا بلد تفاز ، سمع القائد بواختيار جميع ما جرى عليهم على يد محمود بن زرقون .

فنادى شمس الدين بالليل ، وقال له : مولاى أحمد غدرنى وغدركم . فأخبره بما جرى فى أهل بيته ، وأمره أنْ يحتال فى خلاص مهجته ، فذهب إلى عند عيسى بن سليمان البربوشى شيخ أولاد عبد الرحمن ، وخيامهم وراء تفاز يومئذ ، فدخل فى حرمته وطلب منه أنْ يوصله إلى بلد واد ، فوصله هنالك بنفسه كما أراد فسكن فيه إلى رجوع العلامة الفقيه أحمد بابا لتنبكت فصرف له ، فجاء وسكن معه فيه قليلاً فمات رحمة الله عليه .

وأما محمد ولد أدر فأمسك [٢] براءة أمن من مولاى أحمد ، حتى بلغه الباشا محمود بنفسه مع القائد بواختيار لما وصلوا تنبكت فى المحلة التى معه ، وهى ألفان ومائتا راميا ، ستماية (ستمائة) من أهل ماسنة كانوا مع بواختيار وستماية من أهل حاحة كانوا مع الحسن بن الزبير وأمرهما بالتفرقة فى سيرهم ليلا (لئلا) يزدحموا على الماء عند الورود ، فأينما ظل بوختيار يبيت ، ثم الحسن بن الزبير حتى وصلوا تنبكت فسبق بوختيار بالدخول .

هذه أول مرة استخدم السلطان أهل ماسة وأهل حاحة عوضاً من أداء المطلب والوظيفة ، ومعهما القائد عبد المالك وهو قد جاوز إلى مدينة كاغ وسكن فيها .

---

(١) علج : هو الجندى من الكفار ، صاحب الجسم المفتول ، الطويل الوسيم .

(٢) أمسك براءة : أى أخذ عهداً وأماناً .

ثم شرع الباشا محمود فى تسفيط [١] الفقهاء إلى مراكش بعد تأخرهم فى السجن نحو خمسة أشهر ومشوا جماعة كثيرة آباء ، أولاد ، وحفائد ، ونساء ، ورجالاً فى رفقة الكنانة [٢] فى يوم السبت الخامس والعشرين من جمادى الآخرة فى العام المذكور ، ومشى معهم الكاهية [٣] باحسن فريد ، والقائد أحمد بن يوسف العلجى وغيرهم .

أما باحسن فريد فقد مات فى الطريق وسبب ذلك شرعت الرفقة يوم موته فى أمر الرحيل ، فجاء إلى ولىِّ الله تعالى الفقيه ، الزاهد السيد عبد الرحمن ابن ولىِّ الله تعالى أبى البركات الفقيه محمود وهو يتوضأ ، فركضه برجله ، وأمره بالقيام قبل الفراغ من الوضوء فقعد حتى أتم وضوءه ، ثم ركب راحلته ، وركب فريد المذكور ، فعن قليل نفر به الجمل ورماه على الأرض ، فانكسر عنقه فمات فى ساعته .

ولما رأوا مدينة مراكش عند وصوله إليها ، دعا عليهم الفقيه القاضى أبو حفص عمر بن الفقيه محمود ، فقال : اللهم كما شوَّشوا علينا ، وأخرجونا من بلادنا فشوشهم ، وأخرجهم من بلادهم فاستجاب الله دعاءه عليهم ، فكان دخولهم فى ذلك البلد فتح أبواب البلاء فيه .

فبعدما خرج الفقيه من تنبكت رحل الباشا محمود إلى سوق البلد إلى باب القصبة ، فكان ذلك يوم الخميس السادس من شعبان فى العام المذكور ، فدخلوا فى مراكش أول يوم من رمضان فى العام المذكور على ما ذكر العلامةُ أحمد بابا رحمه الله ، ونفعنا به فى كتابه ذيل الديباج .

قال فيه : « ثم امتحن فى طائفة من أهل بيته بثقافهم فى بلدهم فى محرم عام اثنين وألف على يد محمود بن زرقون لما استولى على بلادهم ، وجاء بهم أسارى فى القيود ، فوصلوا مراكش فى أول يوم من رمضان من العام المذكور ، واستقروا مع عيالهم فى حكم الثقاف إلى أن انصرم أمرُ المحنة ، فسرحوا [٤] يوم الأحد الحادى والعشرين لرمضان عام أربعة وألف ، ففرحتْ قلوبُ المؤمنين بذلك ، جعلها الله كفارة ذنوبهم انتهى » .

---

(١) وضعهم فى الأغلال .

(٢) الكنانة : حملة الأقواس .

(٣) الكاهية : قائد الحرس المرافق للباشا .

(٤) فسُرحوا : أطلق سراحهم .

(موقف السلطان من الباشا محمود بن زرقون)

وقد رجع القائد أحمد بن الحداد من تنبكت إلى مراكش خفية ، بحيث لم يعلم الباشا محمود بذلك ، ومشى على طريق ولات ، فأخبر السلطان مولاى أحمد بما فعل محمود من التعديات ، حتى قال أنه لا يعرف إلا سيفه ، وحتى من نصر السلطان فى نُصرته يسل شيئاً من سيفه يقول هذا ، فغضب السلطان غضبًا شديداً ، فقال : رجعت لا أنصر فى السودان إلا بسيف هذا الملعون .

فلما وصل لديه مراسيل مع الفقهاء ، وسمع ما رفع فى ديارهم من الأموال التى لا نهاية لها ، ولم يبعث له منها إلا مائة ألف مثقال ذهباً ازداد غضبًا على غضب فكتب للأمين القائد (حم حق الدرعى) أنْ يأتى إليه وأمر (نفاس الدرعى) أنْ يقوم مقامه .

فلما وصل إليه القائد حق عرض عليه الجرائد [١] ، رأى فيها كثيرًا من الأموال ، فسأله عنها بعد ما دفع له ما معه منها ، فأخبره أن الباشا محمود قد أفسده ، وشتته أشتاتاً وسمع من العارفين إن حم حق ما دفع له ما معه بكمالها ، بل سرق منها عشرين ألفاً ذهبًا ودفنه تحت الأرض فى جنانه فى درعة ، فقبضه وسجنه وكتب للقائد الحسن ابن الزبير فى تنبكت أنْ يكون أميناً . وأن يمنى [٢] نفاس إلى مدينة جنى فيكون أميناً هنالك ، فبقى حم حق فى السجن إلى أنْ تُوفى فيه وانكشف عنه الذهب المسروق بعد موته ، فاتصل بالسلطان بقدرة الله وإرادته .

ثم إن الباشا محمود تجهز ، ورجع لمحاربة إسكيا نوح ثانياً ، وقد خرج من أرض دند وتحوّل إلى أرض الحجر ، وقبض من القاضى (بواختيار) جميع ما معه من الرماة وذهب بهم معه ، وتلقى مع الباشا جودار فى كنكربو جائياً [٣] من مدينة كاغ ، وعرض عليه الذهاب معه فطلب منه حتى يصل تنبكت ، ويستريح فيه قليلاً فحينئذ يلتحق به ، فبلغ أرض الحجر وفتح هنبر ودعنكاد وما فى أحوازهما .

ثم إن السلطان مولاى أحمد بعث القائد منصور بن عبد الرحمن إلى أرض السودان ، برسم قبض محمود بن زرقون وقتله وإهانته ، فبعث له ولده مولاى

---

(١) الجرائد : كشوف الحساب .

(٢) أميناً : أى يتولى أمانة بيت المال .

(٣) جائياً : قادماً .

(بوفارس) مرسولاً بعجلة وسرعة أنْ يخبره بما يأتى به القائد منصور بن عبد الرحمن ، وأمره أن يحتال لنفسه قبل أن يصل إليه ، فلما بلغ الخبر وعلم بحقيقته لأنه خديم مولاى بوفارس خاصة دون أولاد مولاى أحمد توجه بجيش إلى حجر المن . وفيهم إسكيا سليمان فنزلوا تحت الحجر ، فلما جنَّ الليل عزم على الطلوع إلى الكفار، فامتنع إسكيا سليمان من ذلك . وقال الحجر : لا يطلع عليه فى ليل للمقاتلة ولا يعلم أنه يريد الهلاك لنفسه ولهم أجمعين .

فلما كان آخر الليل ذهب إلى الكفار فى أربعين رامياً وعشرة من أهل تنبكت المولدين ولا خبر عند الجيش إلا أصوات المدافع يسمعونها تخبط فوق الجبل عند طلوع الفجر ، ففزعوا وأسرعوا إلى موضع قباء فلم يجدوه فيها فتوجهوا نحو الجبل فتلقوا مَنْ نجا من أصحابه وأخبروهم أنه مات ، وقائد كاغ على بن المصطفى ومنْ قدر اللهُ موته معهما .

فلما رَموْه بالنشاب [1] ، وطاح على الأرض احتمله أولاد تنبكت على أعناقهم ليأتوا به إلى الجيش ، ضيق عليهم الكفار فرموه ، وقطعوا رأسه ، وبعثوه لإسكيا نوح ، وبعثه إسكيا نوح (لكنت) سلطان كب فأقامه فى عمود فى سوق ليك زمنًا طويلاً . فرجع إسكيا سليمان بالجيش مُجدًا فى السير خوفًا من لحوق الكفار بهم ، حتى وردوا بحر بنك .

وقبل أنْ يموت جاءه مفشرن كى أوسنب بابنه أكنزر ، فطلب منه أن يولى أكنزر على قبيلة فى رأس الماء ، ويُوليه هو على الآخرين الذين فى جهة القبلة فرضى ذلك ، وقسم مطلبهم الذى هو ألف مثقال [2] من قديم عصر على الطائفتين : خمسمائة مثقال على هذا ، وخمسمائة مثقال على هذا ، فثبت الحالُ على ذلك .

ثم جاء الجيش إلى عند جودار ، فسكن بهم فى جزيرة زنتا ، حتى وصل القائدُ منصور مدينة تنبكت فدخل فيه الخميس أول أيام رجب الفرد عام ثلاثة بعد ألف ، فتلقاه الباشا جودار فى إبراز ، ونزل بمحلته جنان جعفر فابتنى فيها مشوره[3] .

---

(١) النشابة : نوع من الرماح الطويلة .

(٢) مثقال : من وحدات الوزن ، التى استُخدمت فى منطقة غرب إفريقيا عامة ، وسنغاى خاصة وتعادل حوالى ٤ جرام ذهب ، وثلاثة ألف ودعة .

(٣) مشور : مكان عبارة عن صالة انتظار ، ينتظر فيها الراغبون فى مقابلة الحاكم ، والكلمة مأخوذة من مشاورة الحاكم ، أو الحصول على إذنه قبل مقابلة أىِّ إنسان .

ثم جاز إلى الحجر فى أخذ ثار محمود بمحلته فى شوال فى العام المذكور ، وهى ثلاثة آلاف رام ما بين أرباب الخيل ، والرجل .

وتلقى مع إسكيا نوح فى أرض الحجر ، ومعه نجعة [١] سنغى كلها ، فغلبه القائد منصور ، ونال منه مالم ينل منه محمود بن زرقون فهرب مع جيشه وسلموا فى النجعة . فسبى القائدُ منصور ذكورًا وإناثًا ، كباراً وصغارًا ، قينيين وقينات فرجع بالجميع لتنبكت ، وولى الجميعُ لإسكيا سليمان ، فمن حينئذ صار الخدم والأتباع من أهل سغى ، فسكن تنبكت فكان رجلاً مباركاً ، عدلاً ذا حكم شديد فى الجيش ، وأمسك أيدى الظلمة والفسقة عن المسلمين ، فصار يحبه الضعفاء والمسالمون ويهابه الفسقةُ والظالمون .

(الخلاف بين منصور وجودار)

ثم وقع بينه وبين جودار اختلاف ، حتى عزم أن ينتزع منه جميع الرماة الذين معه ، وأن يكون حكم الأرض فى يده ، حيث هو معزول من حين مجيء محمود بن زرقون حتى انتهى اختلافهما إلى المكاتبة للسلطان مولاى أحمد فكتب لهما ، وفرَّق بينهما وقال حكم الأرض لجودار حيث هو فتحها ، وحكم الجيش للقائد منصور لا يدخل أحد فى طرفيه واحد ، ثم تجهز أيضاً للرجوع إلى الغزو إلى أرض دند ، ونزل فى كرير ومكث هناك شهراً وهو مريض ، ثم رجع لتنبكت ونزل بمحلته بموضعه المعتاد .

فكان أجله فى ذلك المرض ، فتوفى يوم الجمعة قبل الغروب السابع عشر من ربيع الأول عام خمسة بعد الألف . وقيل : إن جودار أطعمه السم فقتله ، وكذلك القائد بواختيار قيل : إنه هو الذى أطعمه السم ، ولم يتأخر هو بعد وصوله أرض السودان إلى أنْ تُوفى ودُفن فى مسجد محمد نض . أما القائد منصور فلم يُدفن بعد وفاته إلا فى الغد فى السبت وصُلى عليه ودُفن فى مسجد محمد نض فى مجاورة سيدى يحى ، ثم جاء ابنه من مراكش فنقله إليها ودفنه هناك .

(فترة الباشا محمد طايع)

ثم بعث السلطان مولاى أحمد الباشا محمد طايع بمحلة [٢] ، فيها ألف رماة ما بين أرباب الخيل وأرباب الرجل ، فوصل تنبكت يوم الاثنين التاسع عشر من جمادى الأولى عام ستة وألف ونزل وراء القصبة فى جهة القبلة .

---

(١) نجعة : معظم أو كل .

(٢) المحلة : حملة ، وأحياناً تُطلق على المكان .

وهو شيخ كبير من قياد السلطان مولاى عبد المالك ذو معرفة ورأى وتدبير ، قد سجنه السلطان مولاى أحمد عند ولايته اثنى عشر عاماً ، ثم تجهز من منزله ذلك إلى الغزو فى الحجر ، فانتزع من جودار الجيش الذى معه . وذهب معه القائد المصطفى التركى ، ولما وصل انكند مات فيه يوم الأربعاء الخامس من شوال . قيل : إن جودار هو الذى أطعمه السُّم على يد (نانا)[1] تركية ، وبقى هو فى بنك فى الحراسة .

فرجع القائد المصطفى بالعسكر بعد ما جرى بينهم وبين أهل الحجر ما جرى . وقيل : أطعمه السم أيضاً ، فلما وصل إلى جودار فى مكان الحراسة استرد منه الجيش فأبى بذلك المصطفى فتحاكى عند كبراء الجيش ، فغلبه جودار بما هو المتعارف عندهم من الحكم بالطريق ، لأن الجيش بيده يومئذ .

ثم توجَّه الجميع إلى تنبكت ، فلما وصلوا مرسى كرنزفى أمره جودار بالطلوع إلى البلد والمكث فى القصبة وهو مريض ، وحين انفصل عنه بعث فى أثره منْ يقتله قبل الوصول إلى البلد فخنقوه فى قرية كبر ، ومنهم إبراهيم السخاوى فمات وحملوه إلى البلد ودفنوه أول الليلة من ذى الحجة مكمل عام ست بعد ألف فى مقابر جامع محمد نض .

وفى هذا العام أعنى العام السادس بعد ألف رجع الأمين القائد الحسن بن الزبير إلى مراكش بمال عظيم الذى حصل من خراج الأرض فى ثلاثة أعوام وشيء . وقام فى مقامه عند غيبته القائد عبد الله الحيونى ، وسعيد بن داود السوسى إلى أن رجع مع الباشا سليمان فى أواخر العام الثامن بعد الألف فانعزلا ، ولم يستكمل ثلاثة أعوام فى تلك الغيبة .

وبعدما قبض الباشا محمود بن زرقون أولاد سيد محمود جاء حمد أمنة صاحب ماسنة إلى تنبكت فى الاستشفاع لهم عنده بالإلحاح فأبى وعزمٍ على قبضه مما فهم من الحمية على رغمه . فنهاه عنه بعض نُصحائه من السودان فكفَّ عنه فرجع لوطنه .

ثم إن جودار بعث إليه فى المجيء لحضرته فأبَى وبعث للقائد المصطفى التركى وهو على تندرم يومئذ ، فأمر بالغارة عليه فذهب إليه فى سبعمائة رام ، أربعمائة من أرباب الرجل ، وثلاثمائة من أرباب الخيل . وكتب للقائد على بن عبد الله التلمسانى

---

(١) نانا : جارية تشرف على الحريم .

أنْ يصحبه فى ذلك وهو فى بلد ، ونزع يومئذ للحراسة فتوجهوا إليه مع الأخيار من أهل سغى مثل كرمن فارى بكر كنبو ، وكل شاع بكر وأشباههما ، فهرب مع أهل حلته فقط فوصلوهم فى وراء بلد زاغ ، فى موضع يُقال له تول فن ، ومعه كثير من كفار ينير وهرب هو مع أصحابه ، وتركوا الكفار فى القتال مع المصطفى ، فقتلوا كثيراً من أولئك الكفار بعد أن حصروهم فى غابة كبيرة ، وسبوا عيال حمد أمنة المذكور وفيهم زوجته عائشة فل وبعض أولاده الصغار .

وتوجه مع كبرائه إلى بلد زار عند سلطان فرن سرا ، وجعل ابن عمه حمد عائشة فى سلطنته وسجن أولئك العيال فى مدينة جنى ، ثم رجع إلى أرضه بعد ما لبث فى زار سنتين . وبعد ما انفصل القائد المصطفى من قتال الكفار ، دخل فى أثر حمد أمنة وتبعه بغزوة حتى دخل فى أرض قياك ، ثم رجع حتى وصل بلد كوكر كى ، وفيها يسكن كل شاع فنزل هنالك لمحلته أياماً ثم ارتحلوا وتوجهوا إلى بلد شنكو فنزلوا فى ساحله من وراء البحر فصرفوا لهم المراسيل فجاء إليهم كبراءهم للسلام ، ثم رجعوا فى إتيان الضيافات ، ثم أمرهم بالقوارب للقطع إلى ساحلهم .

فلما حصلوا هنالك أطلقوا فيهم الغارة ، فوقع بينهم قتال عظيم حتى أصيب القائد على بن عبد الله التلمسانى بسهم مسموم فتأذى منه ، ثم شرب طبغ [1] فتقيأ السُّم بكماله ، فكان منه شفاؤه ولذلك التزمه بحيث لا يفارقه فى غالب أحواله إلى أنْ تُوفى .

ومات حصان كل شاع بكر تحته بسهم أصابه ، وهو قد بلغ الغاية والنهاية فى النجدة ، والشجاعة ، والفروسية ، فبقى يقاتل على رجله ولا يغنى شيئاً فرآه فى المعترك مخازنى [2] وهو يعرفه بتلك الصفة تحقيق المعرفة نزل له عن حصانه وأمره أنْ يركبه فأبى اتقاء المعرة [3] وحلف له إنْ لم يركبه يقتل الحصان فركبه ، فقال له بعد ما فرغوا من القتال : رأيتُكَ لا تصلح شيئاً ، وخلت أن تموتَ باطلاً ، وإن كل ما أصلحه على الحصان أصلحه على رجلى .

---

(١) طبغ : نوع من الأعشاب أو ربما يكون نبات التبغ يعمل على جعل الإنسان يتقيأ .

(٢) مخازنى : جندى من مرافقى الباشا . والجمع مخازنية ، ومهمتهم هى تبليغ أوامر الباشا للجنود فى أثناء المعركة وإخباره بالتحركات .

(٣) أبى اتقاء المعرة : خوفاً من العار .

ولذلك أثرتك بذلك الحاصل .. قتلوا من أهل ذلك البلد ما قتلوا ، وأسرُوا كثيراً رجالاً ونساء ، ومنهم الفقهاء والصالحون . وأما القائد على بن عبد الله فلما جن الليل من أول يومهم ، أطلق جميع مَنْ وقع فى يده وأيدى أصحابه وأعتقهم جميعًا .

وأما القائد المصطفى وأصحابه فوصلوا تنبكت بجميع منْ وقع فى أيديهم فباعوا ما باعوا ، وكسبوا ما كسبوا ، وقيل : سبب جنايتهم لما أتى شاع مكى إلى أرض جنى مع كفار بنبر ، وغاروا عليها وساقوا أهلها وأفسدوا فيها فسادًا كبيرًا ، ما قطعهم البحر إلا أهل ذلك البلد ، ولهذا انتقموا منهم .

ثم إن بارضوان قائد مدينة جنى يومئذ تحرك إليهم ثانيًا بنفسه فهزموه وجيشه وطردوهم ، فلم يعودوا إليهم بعد إلى هلم جرا . وشاع مكى المذكور رجل من أهل كل خدم أهل المخزن فى جنى فى بداية أمرهم ازر ، فلما علم غراتهم هرب عنهم ورجع لبلده ، وصار عليهم بلاء عظيم ، فَسَاقَ المشركين إلى أرض جنى مرارًا متكررة حتى خربها وأخلاها .